



الملكات والسمر

— ١ —

يستطيع من يلم بتاريخ الأدب العربي أن يقف على كثير من الظواهر التي ترد في العصور المختلفة وتكرر في آثار الأشخاص مع ما لمنتجات الأدباء في كل عصر من صبغة خاصة واتجاه معين . ويستطيع الباحث في تاريخ الأفراد سواء أكان ذلك التاريخ أدبياً أم سياسياً أن يقرر نزعة خاصة تسود الفرد وتغلب عليه حتى يعرف بتلك النزعة ويعدّد من أبطالها ومن اشتد تعلقهم بها . وربما كانت له ألوان أخرى من النزعات ولكنها لم تصل إلى درجة من القوة والظهور بحيث يتيسر لها أن تزاحم النزعة الغالبة وأن تكون لها مكانتها من تلك القوة وذلك الظهور — وليس ينازع واحد من الأدباء في أن ابن خلدون كان بصيراً باللغة العربية متفهماً في أصول الفقه خاصة وفي العلوم الدينية عامة ولكن تنازع الملكة قد أثر تأثيراً قوياً في معرفة الناس له وفي تقدير الباحثين حتى صار اسمه مقروناً بفقه التاريخ وعدّ ابن خلدون في سائر الدوائر الأدبية وعند الباحثين مؤرخاً قبل أن يعد لغوياً أو فقيهاً أو غير ذلك مما بلغ فيه ابن خلدون درجة يعتدّ بها ، وكذلك الشأن في حال الجاحظ فقد كان بصيراً بالدين متمذهباً بالاعتدال مبرزاً في فنون النصائيف عارفاً بمكنون اللسان العربي ، ولكننا نعتبره أديباً ظريفاً فيه رقة وسلوة وفكاهة قبل أن نعدّه من الفقهاء أو المحدثين أو اللغويين أو نظار المتكلمين .

— ٢ —

فليس من شك إذن في أن تزاحم الملكات أمر ثابت مقرر ، وأنه لا بد من أن يغلب على المرء فن خاص من فنون المعرفة . وبصل فيه إلى درجة يعتبر من أجلها إماماً ومرجعاً في هذا الفن ، وأن الملكات في فنون مختلفة لا تتيسر لفرد ما ولا يمكن أن يكون هذا الفرد كاتباً جيد الكتابة ، وأن يكون في الوقت نفسه شاعراً

جيد الشعر كما لا يمكن أن توجد ممن يشتغلون بمسائل المعرفة من يعتبر عمدة في القانون وإماماً مع ذلك في التاريخ ، وأما يدرس النابغون على أن بعضهم كاتب أو شاعر أو فيلسوف أو مؤرخ ، وربما يدرس بعض الأدباء على أنه موفق في أسلوب خاص من أنواع الأساليب وأنه لم يتيسر له أن يحذق أساليب الكلام جملة وأن يجعل أسلوبه في كل مقام مرناً ملائماً لما يكتب فيه موضوعات العلوم والآداب — ولهذا التراحم في الملكات لا يرضينا أن يقصد الشاعر الى دراسة ما تغاير ملكته ملكة



محمد قاييل

الشعر، إذ يقع التراحم بين الملكتين وليس من نتيجة لذلك إلا أن تضعف الملكة الثانية وإن كانت غالبية في هذا التراحم . فلا يصير الشاعر الى ما كان ينتظر له لو لم يقصد الى توفر على ذلك الفن الذي زاحم الملكة ووصل في تلك المزاحمة الى حد التعجيز لها والاضعاف . وقد يكون هذا التراحم نفسه علة قضاء على الملكة الشعرية فيحرم الوجود شاعراً ، والمجتمع الانساني شديد التطلع للشعراء لما ينفسون من أعباء الحياة ويرفعون من أعباء الجد ، ولأن التحلل من الحقائق والخلاص من قيودها مريح ، ولأن الشعراء عمدتهم الخيال والشعر عماده العواطف وفي ذلك منتهى لهو النفوس وعبث الميول وتنشيط الأهواء وتغذية العواطف — أريد أن أقول إن معالجة مسائل الفلسفة ونظريات الاجتماع ومواد القانون وقوانين الطبيعة والكيمياء وغير ذلك مما تعوق الشاعر عن الوصول الى ما يستطيع أن يصل

اليه من رقة في الا سلوب ودمانة في اللفظ وروعة في الخيال وتحليل للعاطفة ، ومتعمى
بآثار الشعور لما ينشأ عن مزاجية حقائق العلوم وملكتها لملكة الشعر ، فيلحق
بها الوهن ويتطرق اليها الضعف وتأخذ سبيلها الى التقلص والذبول .

— ٣ —

وليس أدلّ على ما سقته في هذا الحديث مما نجده في غير موضع من أمثلة الشعراء
الذين لم يحظوا باحراز المنزلة الأولى في باب المفاضلة عند الناقدين ، وأسفر النظر
في منتجاتهم من الشعر عن اعتباره من الأمثلة التي لا توجه اليها عناية ولا تستحق
من المرء استظهاراً — فهذا بديع الزمان الهمداني كان شاعراً وقد مُجّع شعره في
ديوان ، وقلما يعني به الشعراء في الشعر ، وقلما يحفظ منه الأديب لمنفعته في
الأدب ، ذلك لأن شعره لتأثير ملكة الكتابة لم يصل الى درجة من الجزالة
والروعة وتضمن المعاني السامية أو الحكمة الصادقة أو الصور المستطرفة أو العاطفة
النائرة ، وانما كان سهلاً لا يمتدح فيه أكثر من المداعبة المقبولة والتظرف المعقول
والملاح التي تعلن عن ظرف البديع وميله إلى ما قد يشبه الخلاعة أو مجانس المجون
نم ما رغب في التعمية به من الالغاز والأحاجي ومحسنات البديع — وهذه نماذج
من شعره يقف منها القاريء على ما نلحه من ضعف واقفار في باب الاختراع وغير
ذلك مما يعتبر علة لتراحم الملكات . قال البديع :

قما لقد نسج الحيا	خلع الربا فأجاد نمجا
وشجاك الحنّ العنديل	ب ونعمة القمري أشجى
واذا المروج مرجت في	أطرافهن الطرف مرجا
شبهت أنوار الربيع	ح كواكباً والروض برجا

وقوله أيضاً :

يا حـريصا على الغنى	قاعــــداً بالمراصدِ
لست في سعيك الذي	خضت فيه بقاصدِ
إن دنياك هذه	لست فيها بخالدِ
بعض هذا فانما	أنت ساعٍ لقاعدِ

— ٤ —

ولم يكن بديع الزمان الهمداني بدعاً في الادب العربي ، ولا كان وحده ممن بدا

فيهم تراحمُ الملكات وغلبت عليهم الكتابة فلم يصلوا الى مرتبة راقية في الشعر ، بل إن المعرى كذلك من تلك الامثلة التي تنازعتها ملكات شتى من الشعر والفلسفة والفقه والنحو وغير ذلك من سائر المعارف التي زكت أيام هذا الفيلسوف . وكانت في نفسه رغبة في الالمام بذلك كله فأخذ كثيراً من مبادئ الفلسفة عن شيوخ اللاذقية وانطاكية ودرس على أهله أولاً وعلى شيوخ حلب كثيراً من معارف الملة الاسلامية التي ترجع في جملتها الى علوم اللغة والدين . وكان تطلعه الى تحقيق هذه الرغبة من أهم العوامل التي زحزحته عن منزلة البحترى والمتنبى وأضرابهم من شعراء الطبقة الأولى — ذلك بسبب تضمين الشعر لتلك المبادئ الفلسفية وما قصد اليه أبو العلاء في لزومياته من مسائل الاجتماع وما خص به في غير موضع من شعره من تصوير لكثير من الخواطر التي تخامرهم وحده ولا تجد العواطف العامة فيها ما يلذ لها ويصور انفعالاتها وما يعتريها من حب أو بغض أو ألم أو فرح أو غير ذلك — ولسنا نلصق في أن عزلة المعرى قد فوّتت عليه كثيراً مما يجب أن يلبسه الشاعر ، فجاء شعره غريباً في المعنى وغريباً كذلك في اللفظ والتركيب ، وكل ذلك ولا شك مظاهر وهن في ملكة الشعر وأثر لتراحم الملكات وتنازعها . ونحن نظن — قصداً للإيجاز — أن القارئ لا يحتاج إلى أن نسوق له أمثلة من شعر المعرى لتكون بمثابة استشهاد على تقرير ما نلصحه فيه من آثار إضعاف الملكة فاللزوميات كلها وغير قليل من شعره يقع فيه ما يعلن عن تخلفه عن استاذ المدرسة القديمة وحكيم الشعر (أبي الطيب المتنبى).

— ٥ —

هذا وليس يصعب على من له إلمامة بالأدب العربي عند المغاربة أن يستطلع أثر ذلك التراحم في ملكة الشعر عند الاندلسيين وظهور الصبغة الفقهية أو النحوية فيه ، إذ كان إحرار المناصب عند الاندلسيين قائماً على مبلغ الإلمام الاديب وقدرته على حذق ألوان شتى من مسائل العلوم وفنونها . فكان شعراء الأندلسيين فقهاء ، وفقهاءهم شعراء ، وهؤلاء مع ذلك قد حذقوا مسائل النحو ووقفوا على شدوذه ويمكنونه . فقسمت لذلك الملكة إن قيل بوحدتها ، وتراحت الملكات إن قيل بتعددتها ، ووقع في شعرهم ما يدل على تأثير الملكات الأخرى من ذكر الغضب والاستيعاب في شعر محمد البطليوسى كقوله :

غضبوا الصباح فقسموه خدوداً واستوعبوا قضب الاراك قدوداً

فهذا الغضب وذلك الاستيعاب كلاهما يكثر ورودُهُ وتكرُّره في باب الفقه وأصوله .
ومن أمثلة ما يُستشهد به في هذا الباب قول القسطلی :

فقد تخفّض الأسماء وهي سوا كنٍّ ويعمل في الفعل الصريح ضميرٌ

فأنت ترى كذلك أن الخفض والاسم والسوا كنٍّ وعمل العاقل والفعل والضمير
وغير ذلك مما يجري كثيراً على السنة النحاة ويكثر ورودُهُ في كتاباتهم وتصانيفهم .
والنتيجة التي أريد أن أنهي إليها أن قصد الشاعر إلى دراسة مسائل العلم ونظريات
الفلسفة مما يضعف ملكة الشعر فيه ومما يكسب شعره نحواً من التعقيد ومظهراً من
مظاهر المعاذلة . ولا تنقاد له ما ينقاد لسليم الملكة من رقة في اللفظ وروعة في
الخيال وتجديد وابتداع في باب المعاني واستحداث للصور الرائعة المحبوبة وتصوير
للاتفاعلات النفسية وشرح للعواطف وغير ذلك مما يحفل به الشعر والشعر
الصحيح وما يستحق أن يسمى شعراً . ولعلنا نوفق إلى ذكر ماتم به ملكة الشعر
في حديثٍ تالٍ ؟

محمد قابيل



كورني والتمثيل في فرنسا

(ننشر هذه المقدمة لترجمة رواية هوراس التي نقلها الى اللغة العربية الدكتور
احمد ضيف وذلك لما تحتويه من وصف عصر الشاعر كورني وما كان هناك من أثر
الحياة الاجتماعية في عالم التمثيل . وستظهر هذه الرواية في عالم الأدب قريباً)

﴿ حياة كورني ﴾

ولد بيير كورني بمدينة رُوان « شمال فرنسا » في اليوم السادس من شهر يونيو